

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 9 (2010) : 14 - 27
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

نقد منهجي لتحليل الخطاب الروائي من خلال كتاب -تحليل الخطاب الأدبي- للأستاذ إبراهيم صحراوي

مصطفى بن الحاج بكير حمودة
قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

توطئة:

تخرّجت من جامعة الجزائر، وكانت مناهج الدراسة الأدبيّة آنذاك المنهج التاريخيّ بالدرجة الأولى، والمنهجين النفسيّ والاجتماعيّ، بينما المنهج البنويّ كان حضوره محتشما؛ وعند عودتي إلى الجامعة أستاذا وجدت المنهج البنويّ بمختلف فروعه قد اكتسح الجامعة، وكاد لا يترك متنفّسا لغيره من المناهج، ولا أدلّ على ذلك من مذكّرات التخرّج، في قسم اللغة العربيّة وآدابها، بجامعة ورقلة، بحكم تدريسي فيها لفترة؛ كما كاد يـ ـبح لزاما على الطالب إذا أراد أن يسجّل موضوعا للدكتوراة –مثلا، وهو ما خبرته– أن يطرق أبواب هذا المنهج، ولو جزئيّا، حتّى يكون له حظّ أوفر لقبول موضوعه؛ لقد أصبح المنهج البنويّ وما تفرّع منه يشكّل–على حدّ تعبير أ/ إبراهيم صحراوي– موضة العـ ـر[1].

لقد أبديت عند اصطدامي بهذا الواقع –خاصّة في مذكّرات الطلبة– تحفّظات على تطبيق هذا المنهج في الدراسة الأدبيّة من حيث إضافته وإثراؤه لها، بما يحقّق الجدوى من تطبيقه فيها، غير أنّ مذكّرات الطلبة لا يمكن أن تعتبر محكّا صحيحا لهذا المنهج أو ذاك.

أقتنيت بعد ذلك نسخة من كتاب أ/ إبراهيم صحراوي "تحليل الخطاب الأدبيّ"، الذي يحلّل فيه رواية جرجي زيدان "جهاد المحبّين"، وكنت قد درّست لطلبتي رواية "الانقلاب العثمانيّ" لجرجي زيدان، بتوظيف المنهج التاريخيّ[2]، فوجدت ضالّتي في هذه الدراسة الأكاديميّة الرصينة لما سبق، وللأسباب التالية:

1 - تركيز هذه الدراسة على الجانب الفنّي في الرواية، بعيدا عن محاكمة جرجي زيدان فكريّا أو تاريخيّا، فهو يقول: «فإنّني لم أتردّد في محاولة دراسة إحدى رواياته دراسة أدبيّة محضة، أي تبحث في الشروط الأدبيّة الفنيّة بعيدا عن الجانب التاريخيّ، وإمعانا في الابتعاد عن هذا الجانب انـ ـبّ اختياري على رواية "جهاد المحبّين" التي لم تكن تاريخيّة، بقدر ما كانت اجتماعيّة أدبيّة»[3].

2– اعتماده في الدراسة –كما يقول– خلفية نظرية بنوية «لاتّجاهات مختلفة في إطار المنهج، لذلك كانت المراجع المعتمدة هي أعمال "جيرار جونات"، و"كلود بريمون"، و"جوليان ألجيرداس قريماس" وتلامذته، و"رولان بارت"، و"جوزف كورتيس"، و"تزفيتان تودوروف"، و"فيليب هامون"، و"مييك بال"، وغيرهم من منظّري المدرسة البنوية الفرنسيّة باتّجاهاتها المختلفة»[4].

3– تحكّمه في المنهج، واقتداره في تطبيقه، ووضوح تعبيره في دراسته، مقارنة بغيرها من الدراسات.

4– نيل دراسته هذه لجائزة على مستوى الوطن العربيّ، ممّا يجعلها دراسة مرجعيّة في بابها.

رواية "جهاد المحبّين" لجرجي زيدان:

هي رواية أدبيّة اجتماعيّة، وهي الاستثناء الوحيد ضمن اثنتين وعشرين رواية كتبها في حياته الأدبيّة، فسائر رواياته تاريخيّة. وقد كتب هذه الرواية سنة 1893، وهي من رواياته الأولى، وقد بدأ مسيرته الروائيّة بـ"المملوك الشارد" 1891م[5].

وهذه الرواية تروي قـ ـتين من قـ ـص الحبّ متقاطعتين: بين سليم وسلمى، وبين حبيب وأدما، وتجمع الـ ـداقة بين هذه الشخـ ـيات أيضا باستثناء سليم وأدما.

سليم يحبّ سلمى، ويلقى القبول لدى أسرتها، وتعارض والدته زواجه بها، بإيعاز من السيّدة وردة، صديقة والدته، التي تريد سليما لابنتها إميلي، وتوظّف لتحقيق هذا الغرض داود، والخادمة سعيدة؛ ويتوصّلون إلى غرضهم بزرع الشكّ لدى سليم في أخلاق خطيبته، وبأنّها على علاقة بـ ـديقه الحميم حبيب.

أمّا حبيب فتراسله أدما معترفة له بحبّها من غير إمضاء، وعندما يتحقّق بأنّها صاحبة

الرسالة يبادلها الحبّ، ويعزم على خطبتها، غير أنّ سعيه في حلّ مشكلات صديقه سليم، وتردّده باستمرار بسبب ذلك على منزل سلمى، يزرع الشكّ لدى أدما في وجود علاقة بين حبيب وسلمى. وفي الأخير تنفكّ خيوط المؤامرة، ويزول سوء التفاهم، وتزول الشكوك، ويتمّ الزفاف؛ وتدور على الباغي الدوائر.

إنّ الرواية من خلال هذا الملخّص الموجز بسيطة في بنائها، لا تختلف كثيرا عن قـ ـص الحبّ المعروفة في الأدب العالميّ أو العربيّ؛ والذي يهمّنا في هذا المقال بيان مدى قدرة هذا المنهج من خلال هذا الكتاب المرجعيّ على الوقوف على مواطن القوّة أو الضعف في الرواية، بعد بيان ظواهرها، وتفسيرها؛ وعليه فالمقال يركّز بالدرجة الأولى على المنهج لا على التأليف وصاحبه.

رواية "جهاد المحبّين" في كتاب "تحليل الخطاب الأدبي" للأستاذ إبراهيم صحراوي:

يقول أ/إبراهيم صحراوي: إنّ البنوية «كمنهج أدبيّ [...]، تقترح مبادئ جديدة في التعامل مع الأثر الأدبيّ، تحدث القطيعة مع الممارسات السابقة، وتجعل–أو تتوق إلى جعل– دراسة الأدب علما، أو تجعل الأدب –على الأقلّ– موضوعا للتحليل العلميّ، مثله مثل أيّة ظاهرة اجتماعيّة أخرى»[6].

هذه العلميّة تظهر واضحة في الكتاب، فالدراسة تحليليّة تطبيقيّة، تتميّز باستقراء الرواية بمنهج صارم، وتتبّع أدقّ التفاصيل فيها، عبر معايير ومقاييس محدّدة سلفا، كاختبارات تجرى على الرواية، «تهدف إلى إبراز الخـ ـائص الفنيّة للخطاب الزيدانيّ، عبر النموذج المختار»[7].

ولعلّ ما ذكرناه يظهر واضحا في أوّل فـ ـل من الباب الأوّل الخاصّ بالشكل الروائيّ، وهو: تقنيات السرد: قضايا الزمن (ص43–90)؛ وفي أوّل فـ ـل من الباب الثاني الخاصّ بالمضمون، وهو: البنية السرديّة (ص121–152)، وهما فـ ـلان هامّان يركّزان على البناء الروائيّ، يتتبّعان صيرورة الرواية من بدايتها إلى نهايتها، عبر الأحداث في علاقتها بالزمن، وفي علاقة بعضها ببعض، بتتبّع سلسلة الأسباب والنتائج فيها؛ فنجد أ/ إبراهيم صحراوي في مبحث زمن الحكاية وزمن السرد يقسّم الرواية إلى واحد وأربعين مقطعا، ثمّ يتتبّعها مقطعا مقطعا، لبيان موقع كلّ مقطع من زمن الحكاية، والوظيفة التي يؤديها بحسب موقعه في زمن السّرد، فهو يقول على سبيل المثال: «وينتقل بنا السّرد في المقطع الثالث عشر،

وكذا في المقطع الرابع عشر إلى محور آخر للحكاية الأساسيّة، هو محور وردة، إميلي، داود، وسعيدة. فالمقطع الثالث عشر تقديم لداود –وكنّا قد تعرّفنا عليه في المقطع الثامن، في مكتب سليم– ووردة، وإميلي، ووالدة سليم وشقيقه فؤاد، وعلاقة هؤلاء الأشخاص بعضهم ببعض، وهو متقدّم زمنيّا عن المقاطع السابقة كلّها، ذلك أنّ كلّ أحداثه قد وقعت قبل انطلاق أحداث الرواية، وما استحضاره للأحداث المتعلّقة بكلّ شخ ية من الشخ يات المقدّمة فيه، إلاّ تأصيل لهذه الشخ يات، وشرح لما قامت به فيما تقدّم من أحداث الرواية، وما هو آت منها»(8). وفي دراسته للبنية السرديّة يركّز على «البحث عن القوانين التي تتحكّم في العالم المرويّ، وتتمثّل هذه القوانين في العلاقات التي تسيّر الأفعال والحركات، فتجعل منها نتائج لما قبلها، وأسبابا لما بعدها إلى أن تنتهي بها إلى نقطة النهاية»(9).

إنّ هذا النوع من الدراسة الفاح ة فح ا دقيقا للرواية من شأنها أن تقرّب الباحث من نسيج الرواية، وأن توقفه على لحمتها وسداتها، وكيفية انسجامهما وتلاحمهما لي نعا من مختلف العناصر الفنيّة بناء روائيّا يميّز صاحبها، فيدرك الباحث من خلالها صنعة الفنّان، ويقدّر ملكته في فنّه:

في ختام الف ل الأوّل من الباب الأوّل يقرّر الباحث ما يلي: «هكذا نرى إذن أنّ البنية الزمنيّة لرواية "جهاد المحبّين" معقّدة، ويرجع هذا التعقيد إلى كثرة الشخ يات العاملة بالرواية، وكثرة المحال التي تتواجد بها هذه الشخ يات، بالإضافة إلى الفترة الزمنيّة الطويلة نسبيّا (عشر سنوات)، التي غطّتها الرواية»(10).

وينتهي في الف ل الأوّل من الباب الثاني إلى القول: «نلاحظ أنّ البنية السرديّة للرواية في حكايتها الأساسيّة والملحقة تبرز في البرامج السرديّة، والبرنامج السرديّ الضدّ في الحكاية الأساسيّة، حيث يتّضح أنّ هذه البرامج هي برامج معقّدة، لاحتواء كلّ منها على برامج رديفة [...] يهدف كلّ منها إلى توفير شرط أساسيّ وضروريّ لتحقيق الأهداف الأساسيّة للفاعلين. تتسلسل هذه البرامج في شكل متتاليات تلعب كلّ منها دورا في تطوّر الحدث، سواء أكان ذلك في القسم الأوّل من الرواية، أم في القسم الثاني منها»(11).

وقد انتهى أ/ إبراهيم صحراوي في خاتمة بحثه إلى هذا الحكم النقديّ: «ختاما نرى أنّ رواية "جهاد المحبّين" تعتبر رواية لا بأس بها، إن لم نقل إنّها ناجحة –فنيّا بالطبع– في الع ر الذي ظهرت فيه –نهاية القرن التاسع عشر، وقد يكون من الخطإ أن نعاملها بالمعايير،

والمقاييس الشائعة اليوم التي نعامل بها الإنتاج المعاصر، فبالإضافة إلى كون الرواية فنّا حديثا حينها في العالم العربيّ، لم يتجاوز طور النشأة، فإنّها لم تكن هدفا لدى المؤلّف [...] بقدر ما كانت وسيلة، استغلّها لغايات، ومرامي أخرى»[12].

إنّ هذا الحكم النقديّ العامّ يـ ـدّق ما ورد في الحكمين النقديين الجزئيّن. وإذا تتبّعنا الدراسة لاستخلاص الاختلالات التي لاحظها على الرواية من تتبّعه الدقيق لجملها وتفاصيلها، وجدنا أربعة اختلالات وردت عرضا في الفـ ـلين اللّذين يركّز عليهما هذا المقال، وهي:

1– ملاحظة تناقض في الإشارات الزمنيّة «الدالّة على الفترة المنقضية بين رحلة الأهرام وسفر حبيب إلى الإسكندريّة، فعند تتبّع هذه الإشارت [...] نلاحظ أنّ هذه الفترة تتمثّل في يومين: تلقّى سليم في الأوّل منها كتاب سلمى(السبت)، وانتقل في نهاية الثاني (الأحد) إلى حلوان، وفي نهاية هذا اليوم اتّخذ حبيب قراره بالسفر إلى الإسكندرية»[13]؛ بينما كانت رحلة حبيب إلى الإسكندرية يوم جمعة، وهو ما اعتبره الباحث قطعا «مدّته ستّة أيّام انحـ ـر فيما بين اليوم الثالث والسادس، ممّا تلا رحلة الأهرام (أي من الإثنين إلى الخميس، على أساس أنّ الرحلة تمّت يوم الجمعة)، وهو قطع لم يشر إليه الراوي، بل لم ينتبه له أصلا غير أنّ الإشارات الزمنيّة المتناقضة تثبته، ممّا أوقع الكاتب في اضطراب وتناقض كان في غنى عنه لو اهتمّ بمراجعة روايته»[14].

2– ملاحظة تناقض بين حدثين، يقول عنه: «وهنا أيضا نلاحظ غموضا آخر في بناء الرواية، فلقد قرأنا في نهاية المقطع الرابع أنّ داود عاد إلى الإسكندرية إثر مقابلته سليم، وأنّ الجميع كان في انتظار ردّ هذا الأخير على كتاب والدته، ثمّ نقرأ الآن أنّه تلقّى كتابا من وردة تستعجله فيه إنجاز المهمّة، وتـ ـارحه بخشيتها من الفشل، وتطلب منه الرأي[...] وهو ما نعتبره تناقضا بين حدثين [...]، والغالب على الظنّ أنّ الراوي–المؤلّف لم ينتبه لهذا التناقض، ولو انتبه ما كان ليوقع نفسه فيه، فالراوي–المؤلّف اندفع في التبرير الآني للأحداث، دون مراعاة الانسجام فيما بينها»[15].

3– ملاحظة عدم التوافق بين مجموعة أحداث والفترة الزمنيّة المحدّدة لوقوعها فيها، فيقول: «يتضمّن المقطع رسالة تلقّاها سليم من سلمى ردّا على تلك التي بعث بها إليها قبل سفره إلى الإسكندرية، لم تخل هي الأخرى من تناقض في تحديد الفترات التي تفـ ـل بين الأحداث: (ولبثت أيّاما أندب وأبكي)، يتعزّز هذا التناقض ببعض ما ورد في المقطع الرابع

والثلاثين، الذي يعود بنا إلى الوراء، إلى ظروف كتابة هذه الرسالة، ومنها أنّ داود علم بذهاب سليم إلى الإسكندرية، عن طريق رسالة من صديقته وردة، فإن كان الأمر كذلك، فهو يتطلّب وقتا أكبر ممّا هو مـ ـرّح به في الرواية، إذ لا يفـ ـل بين قدوم سليم إلى الإسكندرية، واطّلاعه على رسالة تبعث بها إلى القاهرة، ويخبر هو سعيدة بالأمر نفسه، لتخبر هي الأخرى سلمى، فتمكث هذه الأخيرة أيّاما تندب، وتبكي، لتقرّر بعدها كتابة رسالتها التي تحتفظ بها إدارة البريد حتّى يطلبها صاحبها ...إلخ، ويتمّ كلّ ذلك في يومين»[16].

4- ملاحظة تحكّم الراوي- المؤلّف في صيرورة الأحداث، بتوظيف الـ ـدفة في المنعرجات الحاسمة في أحداث الرواية، فيقرّر بحرج كبير: «غير أنّنا نجد أنفسنا في الواقع مجبرين على اعتبار هذا النجاح من فعل الراوي الذي تحكّم في توجيه الـ ـدفة، بجعلها تتعارض وهدف سليم، لمّا كان مخطّط الأحداث وسيرها يستلزم ذلك، ثمّ بجعلها تخدمه لدى استنفاد الغرض الذي من أجله كتبت الرواية»[17].

كلّ هذا يعطي الانطباع بأنّ الرواية لا بأس بها فنيّا، وناجحة بالنظر إلى ريادتها، وهو ما يوافق فيه أ/ إبراهيم صحراوي الدكتور مُحَمَّد يوسف نجم في كتابه "القـ ـّة في الأدب العربيّ الحديث 1870–1914"، حيث يقرّر في بداية المبحث المخـ ـّص لها: «ومن المحاولات الناجحة في القـ ـّة الاجتماعيّة "جهاد المحبّين" 1893م لجرجي زيدان»[18]؛ ثمّ يبيّن نجاحها في دراسته لكلّ عنـ ـر من العناصر الفنيّة في الرواية؛ وهو ما يجعل الاختلالات التي سجّلها أ/إبراهيم صحراوي عليها عرضا استثناءات تؤكّد صحّة القاعدة.

إنّ ما توصّلنا إليه من خلال دراستنا لهذه الرواية، ولرواية "الانقلاب العثمانيّ" 1910–1911[19] قبلها –باعتماد المنهج التاريخيّ– مخالف تماما لما انتهت إليه دراسة أ/إبراهيم صحراوي باعتماده على المنهج البنويّ، ويمكن أن نبيّن ذلك من خلال زمن الرواية، وأحداثها، ثمّ بناء الشخـ ـيات، وهو ما يتبيّن من خلاله بوضوح تحكّم المؤلّف في الرواية، ويؤثر تبعا لذلك على المعنى الأدبيّ الذي لأجله كتبت الرواية:

زمن الرواية:

لقد انطلقت أحداث الرواية بالاحتفال العظيم الذي شهدته حديقة الأزبكيّة بالقاهرة، بمناسبة مرور خمسين سنة على تولّي الملكة فيكتوريا عرش انكلترا، يوم 21 جوان 1887م، وإذا بحثنا عن اليوم من أيّام الأسبوع الذي يوافقه تاريخيّا وجدناه يوم الثلاثاء؛ وهو

موافق لما جاء في الرواية، لأنّ رابع يوم في الرواية كان يوم جمعة، وهو ما يدلّ على شدّة تأثير المؤرّخ في جرجي زيدان على الأديب في هذه الرواية الأدبيّة الاجتماعيّة.

وهكذا من خلال تتبّع أحداث الرواية، بالموازاة مع الإشارات الزمنيّة فيها[20]، نستنتج بأنّ أحداث الرواية تمتدّ من يوم الإثنين 1887/06/20م، إلى يوم الأحد 1887/07/03م؛ بالإضافة إلى الأحداث التي تخرج عن هذا الأطار الزمني، فيما يتعلّق بتاريخ الشخ يات، أو فيما يتعلّق بحفل الزفاف الذي لم يحدّد تاريخه في ختام الرواية.

وإذا كان التوازي بين الأحداث والإشارات الزمنيّة في بداية القـ ـّة سليما، في الأيّام السبعة الأولى من الإثنين 06/20 إلى الأحد 06/26، فإنّه سرعان ما يختلّ إذ يجعل الكاتب اليوم الثامن يوم جمعة عوض أن يكون يوم الإثنين، لا لشيء إلاّ ليتمكّن حبيب –وهو الموظّف الحكوميّ– من السفر إلى الإسكندريّة؛ وكذلك نجد اليوم ما قبل الأخير في الرواية، وهو يوم السبت 07/02 يوم جمعة؛ ليذهب حبيب برفقة والدته وشقيقته إلى منزل سلمى ليبلّغ لها رسالة هامّة من سليم؛ وهكذا نجد في الرواية ثلاث جمعات في تسعة أيّام من 06/24 إلى 07/02.

الأحداث:

إنّ مسارات سرد الأحداث متعدّدة في الرواية، بتعدّد الشخ يات التي يتعلّق بها الحدث، وهو ما يفرض الانتقال بين الشخ يات، لسرد الأحداث المتعلّقة بكلّ شخ ية على حدة، غير أنّ هذه المسارات متقاطعة فيما بينها؛ ولكي يكون البناء الروائيّ سليما يجب أن يكون التطابق تامّا بين هذا المسار وذاك، لأنّ القـ ـّة في النهاية واحدة.

لقد وقع اختلال كبير في هذا الجانب، ويمكن الوقوف على ثلاثة أمثلة هامّة منها، وهي:

1– عندما يروي جرجي زيدان أحداث الرواية المتعلّقة بحبيب في حدث سفره إلى الإسكندرية ليزيل عن والدة سليم سوء فهمها لابنها وخطيبته، ولإحضارها إلى القاهرة لتعود ابنها المريض؛ نجده يسافر يوم الجمعة صباحا، ويعود إلى القاهرة برفقتها مع قطار منتـ ف الليل، فيـ ـل صباح يوم السبت إلى القاهرة.

أمّا عندما يروي الأحداث المتعلّقة بسليم في هذا الحدث بالذات نجد سليما يمضي يوم الجمعة كاملا في بيت حبيب بحلوان، وفيه يجد رسالة أدما إلى حبيب، ويتوهّمها رسالة من

سلمى، فيقيم على مضض في بيت حبيب، إلى مساء يوم السبت، حيث يغادر حلوان إلى القاهرة، ومنها إلى الإسكندرية يوم الأحد صباحا.

وعندما يرجع الحديث إلى حبيب ووالدة سليم نجدهما يفاجئان عند وصولهما إلى حلوان صباح يوم السبت بأنّ سليما قد خرج من بيت حبيب مساء يوم الجمعة، ولم يعد، ويذهب للبحث عنه في القاهرة فلا يجده فيها؛ وهو كما سبق لم يغادر حلوان إلاّ مساء يوم السبت، ولم يغادر القاهرة إلاّ صباح يوم الأحد.

2– الأحداث الأخيرة في الرواية عندما تتعلّق بسلمى تنتهي يوم السبت 07/02، وتمتدّ عندما تتعلّق بسليم إلى يوم الأحد 07/03، وهكذا نجد سليما في ذات اليوم وفي ذات الساعة في مكانين مختلفين، ففي يوم السبت نجده في المساء في بيت حبيبته، وقد حُلّ إشكاله مع سلمى، وعادت الأمور إلى مجاريها، وانتهت المتاعب والـ عوبات؛ وفي مساء نفس اليوم نجده في الإسكندريّة يرتّب أمر عودته إلى القاهرة غدا، بعد كشفه لمؤامرة وردة وابنتها إميلي.

3– حينما يروي جرجي زيدان الحدث الواحد في مسار واحد بينهما فاصل من أحداث أخرى، فنجد سليما يوم السبت 07/02 في وقت القيلولة تـ لمه الخطابات التي تكشف له المؤامرة بجميع تفاصيلها، ففي ص128 نقرأ العبارة الآتية: «وبعد الغداء آوى الجميع إلى الفراش للقيلولة»، وينتقل الكاتب إلى أحداث أخرى، ثمّ يعود إلى حيث توقّف في هذا الحدث، فنجده يتحدّث في ص149، و150 عن تناولهم الغداء، ثمّ جلوسهم في الشرفة يشربون القهوة، ثمّ ذهاب سليم للقيلولة لمدّة ساعة كاملة؛ وهكذا عاد الزمن إلى الوراء، ووقعت أحداث في ذات الزمن غير التي قد وقعت من قبل.

بناء الشخصيات:

وعند التأسيس لشخ ياته تاريخيّا يقع في أخطاء جسيمة تؤثّر على بناء الشخ ية، ومنه على بناء الرواية تأثيرا سلبيّا كبيرا، ونتوقّف عند مثالين بارزين:

1– نجد جرجي زيدان ي رّح بأنّ العلاقة بين سليم وسلمى تمتدّ لعشر سنوات، فهي تقول له في رسالة: «فنحن منذ الآن كما كنّا قبل عشر سنين، لا عهود بيننا، ولا روابط»[21]، أي منذ 1877م، وهي الفترة التي انتقل فيها إلى القاهرة للعمل محاميا، وتعرّف بعد أشهر من إقامته بها بسلمى، فتعلّق قلبه بها، واعتزم خطبتها لنفسه، لكنّه لم يخبر والدته بذلك أوّل الأمر، فلمّا أطلعها عليه بعد حين فوجئ بعدم موافقة والدته على هذه الخطبة، وعدم موافقتها كان بإيعاز من وردة، وعلى غير علم من سليم بذلك، فراجعها مرارا، واستمرّت المكاتبة بين سليم ووالدته حينا، وهو لا يزداد إلاّ ثباتا في الحبّ، وهي لا تزداد إلاّ إباء؛ وإذا المسألة بينه وبين والدته في شأن خطبته لسلمى ممتدّة لما يزيد على تسع سنوات على أقلّ تقدير، والمكاتبات متّ لة بينه وبين والدته، ومكاتبات والدته كانت تكتبها وردة.

وعليه كيف يمكن لتلك الرسالة التي وصلته بعد تسع سنوات –على الأقلّ– من بداية هذه المسألة أن تحدث فيه ما أحدثته، وت بح الانطلاقة الحقيقيّة لأحداث الق ّة؟

ثمّ كيف يمكن للابن البارّ بوالدته الذي يتأثّر تأثّرا بليغا لرفضها لسلمى حتّى يفكّر في الانتحار، لحيرته بين والدته وحبيبته، كيف يمكنه أن يبقى عشر سنوات كاملة من غير أن يزور والدته، ولو على سبيل مطالبتها بمرافقته في خطبة سلمى خطبة رسميّة؟ وما هو مدى حبّه لسلمى إذا لم يستطع السفر إلى والدته ليبذل ولو محاولة واحدة معها، لإقناعها، واكتساب رضاها على زواجه بسلمى؟ وكيف لا يتساءل عمّن كان يكتب لها رسائلها؟ وكيف تكتب لها رسائلها، وهي تعيش مع أخيه وقرينته؟

2– حبيب وعائلته غادروا م ر، بعد أن اشتغل خمس سنوات في خدمة الحكومة الم ريّة، وكان سبب مغادرته لم ر قيام الثورة العرابيّة[22]، أقام بعدها وعائلته ببيروت، وفي مدرسة من مدارسها تعرّفت أخته شفيقة على أدما، ومن بيروت أرسلت أدما خطابا لسلمى، وكانوا حينها في عمر الأطفال[23]؛ ثمّ عاد حبيب وعائلته إلى م ر في بداية سنة 1886م، وأقام بحلوان.

كلّ المؤشرات في الرواية تدلّ على أنّ عمر سليم وحبيب ينيف عن الثلاثين سنة، لأنّ الأوّل يعمل في المحاماة منذ عشر سنين، والثاني اشتغل خمس سنوات قبل قيام الثورة العرابيّة في الحكومة المـ ريّة؛ وخلال الفترة بين 1882م و1886 كانت سلمى وأدما وشفيقة في عمر الأطفال في المدارس، فإذا اعتبرنا بأنّ رسالة أدما قد كتبتها سنة 1882م كأقـ ى تقدير، واعتبرنا أنّ عمر الأطفال –على أحسن تقدير– قد يعني به سنّ الخامسة عشر، فإنّ سليما قد تعرّف –وعمره في حدود العشرين، أو يزيد– على سلمى وعمرها لا يزيد على عشر سنوات.

التحكّم في أحداث وشخصيات الرواية:

إنّ تحكّم جرجي زيدان في روايته واضح، فهو الذي يسيّر الأحداث والشخـ يات في الاتّجاه الذي يريده لروايته، ولا يتركها تتحرّك بمحض إرادتها، فلم تكن شخـ يات إنسانية، وإنّما كانت دمى بين يديه يحرّكها أينما شاء؛ ولعلّ أبرز مثالين على ذلك:

1– إرسال سليم من الإسكندرية خطابا إلى صديقه حبيب بعد انكشاف المؤامرة يطلب منه أن يبادر إلى مقابلة سلمى، ليبلّغها بأنّه شفي من مرضه، وأنّه يطلب منها أن تـ فح عن ذنوبه في حقّها، وأن يقنعها بزوال ما كان يعترض سبيل خطبتهما، وأنّه يعدها وإيّاه بأن يقصّ عليهما تفاصيل القـ ّة العجيبة الغريبة. لقد كان بإمكان سليم أن يرسل ذلك الخطاب رأسا إلى سلمى من غير وساطة من أحد، كما فعل سابقا؛ ولكنّ جرجي زيدان يفعل ذلك ليفتعل تأزّما في قـ ّة حبيب وأدما، فنجد حبيبا يطلب من والدته أن تعينه في هذه المهمّة، لأنّها تتطلّب الاختلاء بسلمى، فتعده بأن تدبّر الأمر ليبلّغ رسالة سليم إلى سلمى من غير أن يشعر بذلك أحد، فيذهب حبيب ووالدته وأخته إلى منزل سلمى، وتنفّذ والدته خطّتها، لينفرد حبيب بسلمى، غير أنّ شفيقة –لسذاجتها– تنتهز الفرصة لإحضار أدما، لتفاجئها بمقابلة حبيب لأوّل مرّة بعد أن خطبت له، فتدخل بها غرفة سلمى، وكان حبيب قد قرأ خطاب سليم لسلمى، فبكت، وبكى، وأخذ يهمس في أذنها بعبارات التعزية والتشجيع، فلمّا رأت أدما المنظر تملّكها الغضب ظنّا منها بأنّه ما زال على حبّه لسلمى رغم خطبته لها، فغادرت الغرفة. وهل نقل رسالة يفضي بالضرورة إلى هذا الوضعية المريبة المشبوهة؟

2– الوظيفة التي أرادها جرجي زيدان لشخـ ية فؤاد، شقيق سليم في الرواية، هو تبرير بقاء والدة سليم بعيدة عن ابنها في الإسكندرية، فهي تعيش مع ابنها الثاني وقرينته؛ وهي بعد ذلك شخـ ية مغيّبة تماما لا فعل لها، ولا انفعال إزاء ما يحدث تحت سقف بيتها، في قضية أخيه

ووالدته، ووردة وابنتها إميلي، فإن كان هو منشغلا بعمله، فزوجته موجودة بالبيت:

– أخوه سليم لا يستنجد به لمساعدته في كسب رضا والدته على خطبته لسلمى.

– وردة تكتب الرسائل لأخيه باسم والدته، فلا يعلم هو بذلك، وأخوه لا يريبه هذا الأمر.

– وحينما سافر حبيب إلى الإسكندرية سعيا منه لكسب رضا والدة سليم عن ابنها، واكتشف نوايا السيّدة وردة، ثمّ أخّر سفره ليلتقي بفؤاد لأنّه كان له صديقا، يبدو أنّه لم يخبره بشيء عن الخلاف بين سليم ووالدته، وما اكتشفه من أمر السيّدة وردة وابنتها إميلي.

– عندما يأتيه أخوه مريضا بعد غياب طويل، يسمح له في ذات اليوم بمغادرة منزله إلى منزل السيّدة وردة، لا لشيء إلاّ لأنّ بيتها في منطقة الرمل يتميّز بنقاء هوائه، فينقل أخاه إليه، وينـ ـرف وقرينته بعد العشاء، ثمّ لا يزروه بعد ذلك مدّة إقامته مريضا بمنزل وردة، والتي دامت ثلاثة أيّام.

لقد كان مغيّبا تماما في الرواية، لأنّ الكاتب حـ ـر مهمّته فيما ذكرناه سابقا، ولم يتركه يتـ ـرّف تـ ـرّف أيّ أخ لا يوجد ما يبرّر عدم اهتمامه بأمر أخيه من خلاف، أو شقاق، أو ما شابه ذلك.

المعنى الأدبيّ:

لقد اختار جرجي زيدان عنوانا لروايته "جهاد المحبّين"، وقدّم لها بما يلي: «رواية أدبيّة غراميّة، تـ ـوّر مأساة من مآسي المحبّين، وما يقاسونه في سبيل الحبّ، ثمّ كيف يجزون على صبرهم ووفائهم، وتدور الدوائر على أهل البغي والعدوان».

والجهاد يعني الفعل والمثابرة فيه، وتحمّل المتاعب في سبيله، فعندما تعرف الذات مطلوبها تحقر ما بذلته وتبذله؛ لكنّ الشخـ ـيات الأساسيّة في الرواية أرادها جرجي زيدان – في الأغلب الأعمّ– منفعلة وسلبيّة؛ والشخـ ـية الوحيدة الفاعلة نسبيّا بينها هو حبيب، لكنّ فعله إنّما هو في صالح صديقه سليم، ليوقعه الكاتب في متاعب مع حبيبته أدما؛ ثمّ إنّ الكاتب يحيط شخـ ـياته بسياج من الـ ـمت عند اللقاء، فلا تتـ ـارح، أو يمنع لقاءها لكي لا تتـ ـارح أيضا؛ وما كان بالإمكان حلّه وحسمه في اليوم الأوّل أمدّ جرجي زيدان عمره أسبوعين كاملين.

لقد كانت الرواية ضعيفة ضعفا كبيرا في بنائها، وهذا الضعف له مبرّراته، وهي:

– رواية "جهاد المحبّين" من أولى رواياته كما أسلفنا.

– هي رواية اجتماعيّة أدبيّة كان عليه أن يضع هيكلها وتفاصيلها، بينما كان يستند بقدر كبير إلى التاريخ في رواياته التاريخيّة.

– الطريقة الخاصّة التي كان يكتب بها رواياته على حلقات في مجلّة الهلال: فقد كان يضع الهيكل العامّ للرواية، ثمّ يكتب الفـ ـل الأوّل وينشره، ثمّ ينتقل إلى الفـ ـل الثاني، وهكذا؛ ولم يكن يكتب الرواية كاملة، ثمّ ينشرها على حلقات[24]؛ ويقول في ذلك: «من غريب ما يتّفق لنا من هذا القبيل أنّنا ننشر الفـ ـل من الرواية، ونحن على غير بيّنة من الفـ ـل الثاني؛ أي: أنّنا نضع حوادث كلّ فـ ـل، أو بضعة فـ ـول في حينها، ويبقى سائر القـ ـّة في عالم الغيب، فلو سئلنا أن نقصّ ما بقي منها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، إلاّ إذا سئلنا عن غرض الرواية بوجه الإجمال [...]، فلا نظنّ القارئ أكثر تشوّقا إلى مطالعة الرواية منّا إلى كتابتها»[25].

□اتمة:

لقد اعتمد أ/إبراهيم صحراوي المنهج البنويّ في تحليل الخطاب السرديّ الزيدانيّ في رواية "جهاد المحبّين"، في إطار الهدف العام لهذا المنهج، وهو جعل– دراسة الأدب علما، أو جعل الأدب –على الأقلّ– موضوعا للتحليل العلميّ؛ وبهدف إبراز الخـ ـائص الفنيّة للخطاب الزيدانيّ؛ فإذا نتيجة دراسته تقويم للرواية بعيد عن النتيجة التي توصّلت إليها بتطبيق المنهج التاريخيّ؛ فالرواية على ضعفها الكبير من حيث بناؤها، وهو الأساس في الرواية، أصبحت –بتطبيق هذا المنهج– رواية لا بأس بها، إن لم نقل ناجحة باعتبار ريادتها.

إنّ الدراسة الأدبيّة والنقديّة هي التي تستطيع تمييز الأجود بين جيّدين، وإذا غامت الحدود فيها بين الجيّد والرديء، فما جدواها؟ ومن أين تستمدّ شرعية وجودها؟

إنّ الخلل في تحليل الخطاب السرديّ وفق المنهج البنويّ –في تقديري–، ومن خلال احتكاكي بدراسة أ/إبراهيم صحراوي لرواية "جهاد المحبّين" تكمن فيما يلي:

1– تحييد النصّ الأدبيّ، وفـ ـله عن محيطه، وظروفه وملابساته من جهة؛ وغياب مقاييس نقديّة يقوّم على أساسها العمل الأدبيّ في جمله وتفاصيله من جهة أخرى، لتكون هذه المقاييس مرجعيّة يستند إليها النقد، وتكون اللغة المشتركة بين الناقد وقارئه، وبين النقّاد

فيما بينهم؛ لأنّنا عندما نـ ـدر حكما نقديّا بأنّ هذا العمل أو ذاك جيّد، فهو جيّد بالنسبة لأيّ عمل، أو لأيّ نموذج؟

2– طغيان الطابع التقنيّ على عمليّة التحليل، كرّس النظرة الجزئية الذي تهتمّ بالجزء في علاقته بسابقه ولاحقه، وغيّب النظرة الكليّة التي تلمّ شتات العمل، وتهتمّ بعلاقة الجزء فيه بجميع الأجزاء.

3– وكنتيجة منطقية للملاحظتين السابقتين نجد التحليل ينتهي إلى نتائج لا تكاد تميّز العمل، لأنّ ما يذكر من نتائج يمكن أن تشترك فيه أعمال جدّ كثيرة؛ ففي ختام دراسة أ/إبراهيم صحراوي لزمن الحكاية وزمن السرد (ص44–71) ينتهي إلى أنّهما مختلفان في ترتيبهما، فيعلّل ذلك بتوزيع الأحداث على حكايتين، وسردهما بالتناوب من جهة؛ وبكثرة الأشخاص العاملين في الرواية من جهة أخرى؛ ثمّ يلاحظ صورا أخرى لاختلاف ترتيبهما، فمنها الرجعات إلى الوراء، والتنبّؤات والتوقّعات(26)؛ فهل هذه النتائج ممّا يميّز الخطاب الروائيّ الزيدانيّ عن أيّ خطاب روائيّ آخر؟ أم هي ممّا يشترك فيه عدد كبير جدّا من الخطابات الروائيّة في الأدب العالميّ والعربيّ على السواء.

وبناء على ما سبق فإنّ التساؤل التالي يفرض نفسه علينا كدارسين للأدب: ما جدوى تطبيق هذا المنهج في تحليل الخطاب الروائيّ خاصّة؟ وفي تحليل الخطاب الأدبيّ عموما؟ وما الذي أضافه للدراسة الأدبيّة والنقديّة؟ وهو سؤال لا تدّعي هذه الدراسة الجواب عليه، لأنّها دراسة لهذا المنهج من خلال دراسة تطبيقيّة واحدة، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال تعميم الحكم من خلالها على سائر الدراسات، وإنّما حسبها أن تنبّه إلى ضرورة تقويم هذا المنهج، من خلال إنجازاته التطبيقيّة النموذجيّة، للوقوف على حدوده، التي تمكّن من الاستفادة منه، فيـ ـبح ومناهج الدراسة الأدبيّة الأخرى طرقا متعدّدة للوصول إلى الحقيقة الأدبيّة، نرتاد الواحد منها متى ما كان يحقّق الغاية في موضوع ما أكثر من غيره.

الهوامش:

1- ينظر: تحليل الخطاب الأدبيّ، دراسة تطبيقيّة: رواية "جهاد المحبّين" لجرجي زيدان نموذجا، أ/إبراهيم صحراوي، دار الآفاق، الجزائر-الجزائر، ط1: 1999م، ص3.

2- أعني بالمنهج التاريخي الأساس المعرفيّ الذي يقوم عليه في نظرته إلى الأدب، مع التفتّح على المناهج الأخرى، باستعمال الأدوات الإجرائيّة المفيدة التي اخترعتها، وتوصّلت إليها.

3- تحليل الخطاب الأدبيّ5.

4- تحليل الخطاب الأدبيّ4.

5- ينظر: القـ ـّة في الأدب العربيّ الحديث، للدكتور مُحَمّد يوسف نجم، دار الثقافة-لبنان، د.ت.ط، ص87، و189 ها1.

6- تحليل الخطاب الأدبيّ3.

7- تحليل الخطاب الأدبيّ4.

8- تحليل الخطاب الأدبيّ61، 62.

9- تحليل الخطاب الأدبيّ 121.

10- تحليل الخطاب الأدبي 90.

11- تحليل الخطاب الأدبيّ 145.

12- تحليل الخطاب الأدبيّ 223.

13- تحليل الخطاب الأدبيّ 65.

14- تحليل الخطاب الأدبيّ 87.

15- تحليل الخطاب الأدبيّ 67.

16 - تحليل الخطاب الأدبيّ 68.

17- تحليل الخطاب الأدبيّ 139.

18- القـ ـّة في الأدب العربيّ الحديث 87.

19- القـ ـّة في الأدب العربيّ الحديث189 ها1، وتقع في الرتبة التاسعة عشر.

20- لقد قمت بتلخيص الرواية جامعا فيه خيوطها في 32 صفحة، متوقّفا عند أهمّ الأحداث، وأهمّ النـ ـوص الواردة فيها؛ ثمّ لخّـ ـتها مرّة ثانية في 10 صفحات، في شكل جدول زمنيّ لأحداث الرواية، قسمّته على أيّام الرواية، وجمعت في كلّ يوم الأحداث الواقعة فيه، وهذا الإجراء مفيد جدّا في دراسة الرواية الزيدانيّة خاصّة، لأنّ الزمن كان مشكلة أساسيّة في رواياته، وهو ما خبرته في نقدي لروايته "الانقلاب العثمانيّ"، وهي من أواخر رواياته.

21- الرواية 63.

22- تمّ القضاء عليها سنة 1882م.

23- «الـ ـبيّ يدعى طفلا حين يسقط من بطن أمّه إلى أن يحتلم» لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت-لبنان، د.ت.ط، مج11، ص102.

24- ينظر: القـ ـّة في الأدب العربيّ الحديث178، 179.

25- القـ ـّة في الأدب العربيّ الحديث179.

26- ينظر: تحليل الخطاب الأدبيّ69-71.